ضحايا السقوط

تتكرر حوادث جنائية معينة ، فيها قتل وفيها شروع فى قتل ، وكلها ترجع فى التعليل إلى سبب واحد هو الانتقام للعرض والشرف .

فمنذ مدة قريبة سمعنا أن جنودا بريطانيين وجدوا فى الصحراء جثة فتاة قتيل فى العشرين من عمرها فأبلغوا الخبر إلى سلطات البحث والتحقيق .

ومنذ مدة أخرى قيل ان ماء النيل حمل من الأطراف البعيدة جثة امرأة مخنوقة فنقلتها سلطات التحقيق والبحث إلى حيث تتجلى الحقيقة من شأنها .

ولا يكاد يمضى وقت طويل بين هـذه الحوادث بعضها و بعض حتى يقال إن أبا أو أخا أو زوجا أو ابن عم الخ افتقد عرضه فلما وجده مبذولا فى سوق الفحشاء مزق أحشاء أقرب الناس إليه أو حز رقبتها بسكينه لأنها بذلت للهتك عرضها وعرضه ، والتعليل فى ألسنة هؤلاء جميعا هو التعليل نفسه ، الدفاع عن العرض والمحافظة على الشرف .

وما من شك فى أن القتل والشروع فيه جريمة تنكرها شريعة الله وشريعة الإنسان مهما كان سببها هكذا ، و إذا كان الحق أن التفريط فى العرض جريمة لها فى الشريعتين عقوبتها المعينة ، فالحق أيضا أنه لا شريعة الله ولا شريعة الإنسان تجيز لأحد غير القائمين على أمرها بالتنفيذ والمقاصة أن يأخذ حقه بيده ممن يجنون هذه الجريمة .

ولكن معيار الشعور بمعنى الشرف والعرض و بما يتصل بهما من كرامة الوجود الإنسانى وما يدور معهما وجـودا وعدما من خفض الرءوس وذل النفوس ، هـذا المعيار يختلف صعودا وهبوطا بقدر ما تصيبه سـيئات العصر من ضعف ووهن ، فهو فى الريف أقوى منه فى المدن ، وفى عامة أهل المدن أقوى منه فى خاصتهم ، وذلك أنه كلما كانت دواعى الإغراء ووسائل العـدوى أكثر فى جانب من الناس كانت آثارهمـا أظهر فى هذا الجانب من غيره وكان هو أسبق إليهما من سواه ، ومن هنا يتفاوت غليان الدم فى العروق وعصف الغضب بالأعصاب على حسب ما بين الناس من تفاوت فى الشعور بقيمة العرض والشرف وفى تقدير معيارهما أيضا .

وقد يكون القتل فى هذه الحالة نتيجة تصور متضخم تدفعه الى النفس مفاجأة الصدمة فيخمد إلى جانبه كل تصور آخر غير تصور العار الذى لا يمحوه تطاول الزمن ولا تقوى عليه يد النسيان ، وكما يحدث القتل فى هذه الحالة حين يكون القتيل بريئا مما نسب اليه كذلك يحدث حين تنسب اليه التهمة وهو غير برىء منها ، وفى المسألة على الحالين جريمة لا يرضاها شرع ولا قانون .

لكن على أى شىء تدل هـذه الحوادث بعـد أن أصبحت من الكثرة بحيث لا تنقطع أخبارها كل آن ؟

انها تدل على أمرين : أحدهما أن مقياس الحياء والتصوّن أصبح — فى النسبة العامة — أشد انخفاضا عند المرأة مما كان قبل هذا الزمن ، والثانى أن معيار الشعور بقيمة الشرف والعرض لم ينخفض كثيرا — فى النسبة العامة أيضا — عند الرجل عن مستواه الذى كان له من قبل ، وفى كلا الحالين تأتى النتيجة شرا فى نفسها وفيما ينشأ عنها .

ولا ريب أن تقدير الشرف والاحتفاظ به والدفاع عنه حق لا يمنعه الا أن تعود الطبيعة الانسانية السليمة فترى السلامة فى أن تجعل هذا الشرف أمرا اعتباريا محضا ، غير أنه حق مقسوم بين طرفين ، فهو من حيث انشاؤه فى النفوس وحرصها عليه حق الجميع ، ولكنه من حيث القصاص له والجزاء على هتكه أو التفريط فيه حق الله فى شريعته الباقية وحق الهيئة الاجتماعية يؤديه قانونها القائم وسلطتها المنفذة .

فلو أن الناس يفهمون هذا ويعملون به فى أنفسهم لما استفاضت هذه الحوادث ولما ارتفعت نسبة ارتكابها الى مثل ما نرى مما لم نكن نرى مثله قبل هذه الأيام .

وليس من الرأى أن نتعلق بالرجاء فننتظر حتى يفهم الناس من هذا الحق ما لهم وما ليس لهم وأن نظن أنهم متى فهموا ذلك التزموه فيما يصدر عنهم من تفكير أو عمل ، فقـد أفسد هـذا الرجاء أن التيار قوى جارف وأن أسباب الغواية والاستهواء أحدقت بالناس من كل جهة ، وملأت آذانهم وأعينهم فى كل مرئى ومسموع ، وزاحمتهم فى الطرق والأسواق ، واقتحمت عليهم الدور ورافقت أهل كل بيت فى خلوتهم الخاصة .

وانما يتجه الرجاء وينتهى الأمل الى وسيلة من وسائل الوقاية تمنع الأصحاء أن يصيبهم داء المرضى ، والى وسيلة أخرى من وسائل العلاج تمنع المرضى أن يشقوا بدائهم .

فاذا أمكن أن تضرب أسباب الغواية والاستهواء فى مصادرها ومواردها ضربة تخرس الألسنة وتشل الحركات لما فتنت امرأة ولا فتاة بما ترى أو تسمع ، ولما صدم أب ولا أخ ولا قريب بما يترك نفسه خاوية من كل تصوّر غير تصوّر العار والانتقام

ولا نقول ان فى هذا العلاج عصمة لكل أنثى من السقوط ولا ما نعا لكل رجل من الجريمة، ولكنا نقول إنه ككل علاج يكافح الوباء المنتشر، فهو يطارده و يسد منافذه ولا يقضى عليه .

ثم اذا شئنا أن ندل على أسباب الغواية والإستهواء لم نزد على أن نقول إن معرفتها تغنى عن الدلالة عليها ، ففى مقام المشاهدة برؤية العين هى مذابح الشرف ومجازر الكرامة ، أعنى تلك الملاهى الليلية المبثوثة فى مختلف الأرجاء ، وفى مقام الاستماع هى صائدات الآذان وطارقات القلوب ومختلسات الحياء والخجل ومفشيات العدوى بين الأصحاء ، أعنى تلك الجوانب المفحشة من الأغانى المذاعة والروايات الممثلة على المسارح وفى دور السينما .

ومما لاشىء فى كتمانه غير الشر أن عار هذه المخزيات أصاب مصر فى الأقطار الشرقية التى تسمع من الاذاعة ما يصدر عنها حتى لقد كرهت الأمم الكريمة فى هذه الأقطار أن تسمع من الاذاعة المنسوبة الى مصر غير الأقل الذى يظهر أن مركز الاذاعة لا يهتم به اهتمامه بغيره كالقرآن الكريم و بعض المحاضرات العلمية والأدبية التى لها نفع وفيها روح .

فان بقى بعد ذلك شىء من الإبهام أو الخفاء فيما يحسن أن تضرب به أسباب الاستهواء وعوامل الغواية فى مصادرها ومواردها جميعا وجب أن نقول فى بيان ذلك أن أداة التشريع هى التى تستطيع أن تجد وسيلة الوقاية ووسيلة العلاج ، والأمر غاية فى السهولة واليسر ، فهو ليس أكثر من أن تفرض بالتشريع التدابير الآتية :

١ — تمنع فى الملاهى والمراقص منعا باتا تعرية الأجسام ، والرقص الذى يثير غرائز الفساد، والتمثيل الذى تعرض فيه حركات الأعضاء وكيفيات الأصوات عرضا فاحشا وخلقا ، وكذلك الأغانى التى تسهل أمر الرذيلة وتتحدث عنها وتعتذر لها .

٢ — تمنع هذه الملاهى والمراقص من أن تقبل فيمن يذهبون إليها شبانا تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين .

٣ — يحدد لها وقت فى السهر لا يتجاوز نصف الليل على الأكثر .

٤ — تفرض من طريق التشريع لا من طريق الإدارة رقابة جدية على الملاهى والمراقص ودور السينما وجميع ما تعرضه من الأفلام وكذلك على ما يوضع من الأغانى قبل تلحينه والغناء به .

٥ — تعتبر كل مخالفة فى حالة من هذه الحالات جريمة لها عقوبة رادعة ، وفى المخالفة الخاصة بقبول الشبان فى المراقص والملاهى ونحوها يعاقب كل شاب يضبط فى مرقص أو ملهى أو نحوه بنفس العقوبة .

٦ — يمنع نشر صور النساء كلما كانت خارجة عما يقرره العرف المصرى الثابت من حدود الاحتشام والصيانة وما يعتبره هذا العرف من الأمور الفاضحة .

٧ — تراقب الاداب العامة فى الأسواق والشوارع والأندية والمجتمعات مراقبة تحقق القدر الذى يقتضيه القانون القائم الآن ، ففى هذا القدر — إذا تحقق — حماية كافية للاداب العامة .

وصحيح أن أكثر ما تقع جنايات الدفاع عن العرض والانتقام له فى بلاد الريف ، ولكن يجب ألا ننسى أن أمراض المدينة تنتقل عدواها إلى القرى بالسماع والتحدث ، وبالمشاهدة والاختلاط ، وبالتردد الدائم بين القرى والحواضر ، ويظهر ذلك واضحا أتم الوضوح إذا علمنا أن بلاد الريف أصبحت متصلة بالمدن وأن مسافة البعد بينها وبين المدن صارت الآن تحسب بالساعات والخطوات لا بالأيام والفراسخ ، فكل مظاهر الحياة فى المدن المصرية تنعكس على ما حولها من القرى والبلدان ، وهكذا حتى تجمع بين طرفيها البعيد والقريب ؛

م . ٥

— من عظم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها .

— ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها .

— من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته .

— زهدك فى راغب فيك نقصان حظ ، ورغبتك فى زاهد فيك ذل نفس .

— الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون فى حديثك فضل عن عملك ، وأن تتقى الله فى نقل حديث غيرك .

على بن أبى طالب